الفصل السادس

الإيْمَـــان

إن الإيمان يُثمر - إذا كان صادقاً قوياً - الأخلاق الكريمة..

والأخلاق الكريمة عنصر من أهم عناصر التصوف، ولا يوجد تصوف ما لم يكن الأساس الخُلق الكريم.

ولقد حبَّب الله الإيمانَ إلى الفضيل، وزيَّنه في قلبه، وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فكان من الراشدين، فضلاً من الله ونعمة، والله عليم حكيم.

لقد كانت الأخلاق الكريمة امتداداً لإيمانه، وكان تَصوُّفه كأنه امتدادٌ لأخلاقه الكريمة..

ومن أجل ذلك.. كتبنا عن هذه الأمور على التوالي:

الإيمان - الأخلاق - التصوف.

عن الإيمان يروى الفضيل ـ بسنده ـ عدة أحاديث. . منها: ما رواه عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن عبد الله ابن الحارث، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ :

« شكى نبيٌّ من الأنبياء إلى ربه ـ عز وجل ـ فقال:

يا ربُّ: يكون العبدُ منْ عَبيدكَ، يؤمنُ بكَ ويعملُ بطاعتكَ؛ فتَزْوِى عنه الدُّنيا، وتعرضُ له البَلاءَ.. ويكونُ العبدُ منْ عَبيدكَ.. يكفرُ بكَ، ويعملُ بمعاصيكَ، فتَزْوِى عنه البَلاءَ، وتعرضُ لَهُ الدُّنيا.. فأوحَى الله ـ عز وجل ـ إليه:

«إنَّ العبَادَ وَالبلادَ لِى، وإنه ليسَ منْ شيءٍ إلا وهو يُسبِّحُنى ويُكبِّرنى ويُهلِّلنى.. أمَّا عَبْدِى المؤمنُ فَلَهُ سيِّئاتٌ فأزْوِى عنه الدُّنيا، وأعرضُ له البلاءَ، حتَّى يأتِينى فأجْزيه بحسناته.. وأما عبدى الكافرُ فله حسناتٌ، فأزوِى عنه البلاءَ، وأعرضُ له الدُّنيا، حتَّى يأتِينى فأجْزيه بسيِّئاته ».

ومنها ما رواه ـ بسنده ـ عن رسول الله ﷺ قال:

« لا يَزْنِى الزَّانى حينَ يَزنى وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الشاربُ حينَ يشربُ وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حينَ يسرقُ وهو مؤمنٌ، والتوبةُ معروضةٌ بعدَ ذلكَ ».

وهذا الحديث ثابت وصحيح من حديث الأعمش، رواه عنه الأئمة.

ومنها ما رواه الفضيل، عن الأعمش، عن أبى سفيان، عن أنس ابن مالك، قال:

« كان النبى ﷺ يكثر أن يقول:

« **يا مُقلِّبَ القلوبِ: ثبِّتْ قُلوبَنا على دينكَ** »..

قالوا: يا رسول الله، تخاف علينا وقد آمنَّا بك ؟

قال: ما مِنْ قلب إلا وهُوَ بينَ إصبعينِ مِنْ أصَابعِ الرحمنِ.. فإنْ شَاءَ أقَامَهُ،وإنْ شَاء أزَاغَهُ ».

ومنها ما رواه الفضيل، عن منصور، عن ربعىٍّ، عن حذيفة، عن النبى ﷺ قال:

« **كان رجلٌ يُسىءُ الظَّنَّ بعمله . . فقالَ لأهله : إذَا أنَا متُّ فاحْرِقُونى، ثُمَّ اطْحَنُونى، ثُمَّ ذرُّونى فى البَحْرِ فى يومٍ عَاصف، فإنَّ ربِّى إنْ قَدَرَ علىَّ لمْ يغفرْ لى.. فلمَّا ماتَ فَعَلُوا به ذلكَ، فَجَمَعَهُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقالَ: ما حَمَلَكَ علَى الذى فعلتَ؟ قال: ما حَمَلَنى إلا مَخافتُك.. فغفرَ لَهُ** »[1].

والفضيل يتحدث عن كثير من زوايا الإيمان ، ونورد فيما يلى بعض ذلك:

---

(١) روى البخارى نحوه .

استكمال الإيمان:

عن إبراهيم بن الأشعث قال:

« سمعت الفضيل يقول:

«يا سَفيهُ ما أجهلَك.. ألا تَرْضَى أن تقولَ أنا مؤمنٌ، حتَّى تقولَ أنا مُستَكْمِلُ الإيمان ؟..

لا.. والله لا يستكملُ العبدُ الإيمانَ حتَّى يؤدِّيَ ما افترضَ اللهُ تعالى عليه، ويجتنبُ ما حَرَّمَ اللهُ تعالى عليه، ويَرْضَى بما قَسَمَ اللهُ تعالى له، ثم يخافُ مَعَ ذلكَ أنْ لا يتقبَّل منْهُ».

من صفات المؤمن:

عن محمد بن أحمد بن يزيد ومحمد بن جعفر، قالا:

حدثنا إسماعيل بن يزيد، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« الغِبْطَةُ منَ الإيمان، والحسَدُ منَ النِّفَاق، والمؤمنُ يَغْبِطُ ولا يَحْسُدُ.. والمنافق يَحْسدُ ولا يَغْبِطُ،والمؤمنُ يَسْتُرُ ويَعِظُ ويَنْصَحُ، والفَاجِرُ يَهْتِكُ ويُعَيِّرُ ويُفْشِي»..

قال: وسمعت الفضيل يقول:

« وَعِزَّتِه لَوْ أدْخَلَنِي النَّارَ، فَصِرْتُ فِيهَا، مَا يَئِسْتُهُ».

وقال: سمعت فضيلاً يقول:

« كانَ يُـقَالُ: مِنْ أخْـلاَقِ الأنبياء، والأصْـفيـاء الأخْيَـارِ، الطاهِرة قلوبُهم، خلائقُ ثلاثةٌ: الحِلْمُ، والأَنَاةُ، وحَظٌّ مِنْ قيامِ الليلِ ».

المؤمن صادق:

يقول الفضيل:

« عَامـلِ اللهَ بالصِّدْقِ فى السِّـرِّ، فإنَّ الرَّفـيعَ مَنْ رَفَعَـهُ اللهُ.. وإذَا أحَبَّ اللهُ عبداً أسْكَنَ مَحَبَّتَهُ فِى قُلوبِ خَلْقِه».

خوف الله :

« مَنْ خَافَ اللهَ لَمْ يَضُرَّهُ شَىْءٌ، ومَنْ خافَ غَيْرَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ شَىْءٌ ».

المؤمن لا ييأس :

« وعِزَّتِه وجَلالِه، لَوْ أدْخَلَنِى النَّارَ وصِرْتُ فِيها ما أَيِسْتُ مِنْهُ».

المؤمن لا يشكو :

عن خلف بن الوليد يقول:

« جاء رجل إلى الفضيل يشكو إليه الحاجة ، فقال له:

« أمُدَبِّرًا غيرَ اللهِ تُرِيدُ ؟..».

المؤمن لا يكون مغموماً :

ورأى الفضيل رجلاً مغموماً فقال:

« أَتَخْشَى أنْ يكونَ لكَ رزقٌ لا تَسْتَوفيه ؟» . قال: لا. قال: «فَتَخْشَى أنْ يكونَ غيرُ ما شاءَ اللهُ ؟ » . قال: لا. قال: « فلأيِّ شيءٍ غَمُّكَ ؟» . .

المؤمن لا تستعبده الدنيا :

عن عبد الله بن محمد قال: حدثنا أحمد بن الحسين بن إبراهيم، حدثنا الفيض بن إسحاق، قال: سمعت الفضيل يقول:

« لا يبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يَعُدَّ البلاءَ نعمةً، والرَّخَاءَ مصيبةً، وحتَّى لا يُبَالى مِنْ أكلِ الدنيا، وحتَّى لا يحبَّ أنْ يُحْمَدَ علَى عبادةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ » .

وعن الحسين بن زياد المروزى قال:

سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« حَرَامٌ على قُلُوبِكُمْ أنْ تُصِيبوا حلاوةَ الإيمانِ حتَّى تَزْهَدُوا فى الدُّنيا » .

هيبة الخَلْق للمؤمن :

يقول الفضيل:

« يَهَابُكَ الخَلْقُ عَلَى قَدْرِ هَيْبَتِكَ للَّه ».

المؤمن والمنافق :

عن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول:

« المؤمنُ قليلُ الكلامِ، كثيرُ العَمل. والمنافقُ كثيرُ الكلامِ، قليلُ العملِ. كلامُ المؤمنِ حِكْمَةٌ، وصَمْتُه تَفَكُّرٌ، ونَظَرُهُ عِبْرَةٌ، وعَمَلُهُ بِرٌّ، وإذا كنتَ كذا.. لمْ تَزَلْ فى عِبادةٍ ».

***